

# قضايا التحرر في الأدب السوداني

## بقلم أبو بكر خالد

وكان الجمهور المستمع على تعبير حسن نجيلة في كتابه ( ملامح من المجتمع السوداني ) يصرخ بصوت يردد : اعد ، اعد ، ويا لنا من العمائم التي كانت تساوم في امرنا مع المستعمرين .  
وكان جماع هذا العمل الدائب من قبل الشعر ان صان وجدان الجمهور والتعلمين بخاصة ، من التلف والافساد ، وبهذا الذهن والوجدان كانت فئة التعلمين من خريجي المؤسسات العلمية تتطلع وتحمل ثورة عام ١٩٢٤ تعبيراً عن رغبة في الانعتاق مرتبطة بمصر عوداً الى رابطة النيل قديماً واصالة .

ومن تحت نير الفظاظة التي ردع بها المستعمرون ثورة ١٩٢٤ ومن القبضة التي خنقوا وازدروا بها بعد الشعب طائفة التعلمين من كل هذا كان جيل للسخط والفضب عامر الموهبة والقدرة يشق طريقه الى صدارة الحياة الفكرية . كان زخم الفكر والعاطفة يدق بعنف الاشكال المقدسة في التعبير ، وكان ذلك الزخم ايضا يرتاد ضروباً من التعبير حديثة ومبتكرة منذ الكاتب ( الامين علي مدني ) في « اعراس ومآتم » ، وحمزة طمبل في « النقد الادبي » ، حتى محمد احمد محبوب في « اتجاهات الحركة الفكرية في السودان » . . . . . وبمقالات التيجاني يوسف بشير ومحمد عشري وعبد الله عشري كان المضمون الجديد الحزين ، الاسى والساخط معا يبحث عن مخطط نقدي يستوعب القدرات الشعرية والادبية الجديدة . . . كان تياراً رومانسياً ضارباً في الطبيعة او في القوالب الصوفية ومثاقراً بحركة ( الديوان ) في مصر ينزع الى هدم الهالة القدسية حول القالب الشعري القديم . وبالسخط القديم في حركة الشعر السوداني لم يصل هذا التيار الى حد الاغراق والعزوف عن المواجهة مع المستعمرين . كان التيجاني يستامن من عبر مصر عنادا وتطلعا في وقت يبذل المجهود الاستعماري لبني الجدران بينها وبين السودان . في هذا الوقت كان التيجاني يعني « رعى الله مستودع الثقافة مصر » كلمة حق وشوق ووطنية حين كانت الصحف والكتب العربية من مصر محرمة على طلبة كلية غردون التذكارية .

وكانت الحياة الجديدة في المكاتب والملابس الاجتماعية التي تنشأ مع المدن تجد التعبير لدى رواد القصة كمسيد الحليم محمد والسيد الفيل وكانت الندوات الملققة في المنازل حيث التراء العاطفي والمدارسة والتفكير ، تشكل بدور حركة اصلاحية نامية واحساساً عميقاً بالعودة الصريحة الى المواجهة في حدود الامكانيات المتاحة ، وتبلورت من تلك اللغوات مدارس فكرية كمدرسة ( الفجر ) التي اصدرت مجلة ثقافية بنفس الاسم . وتجمعت تلك الروافد جميعها ، روافد السخط والتطلع في مؤتمر الخريجين العام سنة ١٩٢٨ الذي اصطدم فيما بعد - وبفعل تأثيرات الحرب العالمية الثانية - بالوجود الاستعماري في مذكرة تطالب بتقرير المصير في وحدة مع مصر .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية تاججت الحركة السياسية في البلاد ، واقتحمت حلبة الوفي قوى العاملين في المصانع وفي الزراعة، وفتحت نوافذ بلادنا لحركات التحرر الفكري والسياسي وتفتتت محاولات الشباب المصفود الاقدام عن موجات من الهجرة الى مصر طلباً للمعرفة والعلم وعن مزيد من الاحتكاك بالثقافات الجديدة يربط عن

من حول المساجد (١) والخلوي ( الكنايب ) واضرحة الاولياء كان جنين الشعر السوداني في عهد الفونج ( ١٥٠٥ - ١٨٢٠ ) قد اخذ في الاستواء والاكتمال بوجود صوفي وروح بئذ وسخاء .  
لم تكن هذه الاماكن مؤسسة سلطانية او اقطاعية ، بل عطاء انسانياً يمنح المرید المركزي حينذاك ومن غوائل الدنيا : جوعها وحرها وحزنها ولم يكن شيخ الجماعة سلطاناً او طاغية ولكنه بشر كالاخرين من ادم ، وادم من تراب ، يربطه بمريديه وشعرائه وهج الدم والقربى وشجرة نسب لكل انسان موضع فيها ومن ثم التزام وحقوق . وكان الشاعر مزمار الجماعة كلها ، صوت سموها وعلو شأنها .  
وانحدر هذا التقليد ببذله وسخائه ، وجده الصوفي حين نشبت في بلادنا ثورة الامام المهدي في وجه الحكم التركي ( ١٨٢١ ) وتعالى الشعر بكبرياء وبطر :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت في شأن الاله حياة  
وانسعت المؤسسة الصوفية القديمة لتشمل البلاد بأسرها وعلو رأسها المهدي - صوفي القسامات والتربية - وانسجم الشعر رواء رائعا مع المنحى التحرري .

وجاء عام ١٨٩٨ ، الذي نسميه في القاموس الشعبي سنة الضربة حيث انتهى السودان الى مستعمرة انجليزية ، وبحت اصداء الثورة المهدية وامتلأت بلادنا بالادارة الجديدة بعد القضاء على الهبات الوطنية المتعددة ، امتلات بالفتشيين الاجانب وبالاجهزة الادارية الكثيرة وبالرشوة للضمير والعاطفة ، وبالمحاولة اثر المحاولة لكي ينقطع السودان الى الابد عن ماضيه وتنشأ في افئدة وعقول ابناؤه عقد النقص واستصغار الشأن .

وبرهة صغيرة واستعداد الشعر روح وجده وبذله ونفذ الى المناسبات الدينية في الموالد وفي الاحتفاء بالهجرة والاسراء والمراج . وكان الشعر انذاك يتحسس ويجلو للادهان مواضع فخر الامة واعتزازها، ماسحا بالكلمة الفبار والصدأ اللذين يفرزهما الوجود الاستعماري عليها . كان الشعر بشكله التقليدي وبالبراج والسعة اللذين فيه يطوف على عهد الراشدين ونبي المسلمين ، ويركسب موجات الفتح الاسلامي الى الشام وفارس والروم يحمل الهداية والنور في وقت جهلت فيه اوربا وانكفات بصيرتها . وكان الشعر ايضا يث زهو الحضارة الاسلامية ، لكي يبلأ رثة الشعب بالفخر والحماسة ويتجاوز احساساً بالضعف ترسب فيه بموقمة ( كرري ) ، واحساساً بالمذلة يطاه به الوجود الاستعماري .

كان الشعر يعري الصلات المريبة التي اخذت تنتظم الساقطين شرفاً ورجولة بالوجود الاستعماري ، وكانت عيون المخابرات وراء الشاعر الشاب - مدثر البوشي - في مولد ١٩٢٣ حين وقف قائلاً :  
ارى شرعة الاسلام رثت حبالها وراحت بامواج الخطوب تلاطم ارى الحق يبدو للانام ويختفي ولم يبق من بين العشار حازم الى ان يقول :

فما روع الاسلام الا عمائم تساوم فينا وهي فينا سوايم

(٢) قدم هذا البحث وفد السودان في المؤتمر الثالث لكتاب اسيا وافريقيا ببيروت .

وعى بين التحرر السياسي والمضمون الاجتماعي .

واقادت حركة القصة السودانية كثيرا من هذا الوعي فكسرت دائرة الموضوعات العاطفية الساذجة واغترفت من مناهل القوى الاجتماعية الجديدة التي أصبح لها وزن وابعاد في الحياة السياسية. تشبهت القصة الى ان هناك انسان يسمى ( حجر ) عامل بمصلحة السكة الحديد يموت ذات شتاء من خواء البطن بينما يزدرد الاستعمار وعملاؤه طيب الطعام والشراب . ورغم الضعف الفني في ( مات حجر ) ل محمد سعيد معروف ( ومذكرات اغيش ) لميد الله رجب ، فقد استطاعت القصة ان تتولى امر التربية الاجتماعية وتقديم نماذج بشرية مسحوقة اجتماعيا ينبغي ان تنصرف لها همة حركة التحرر الوطني حيث تنجز واجب جلاء الاستعمار . وعاد للشعر صوت الهتاف جنبا الى جنب مع المظاهرة والموكب والاضراب يعد ان كان هذا الصوت قد خفت في الجيل الماضي تحت وطأة الازهاق والخشية من اعين واذان المخابرات . وعانق الشعر حركات التحرر واذاع مجدها لناس .. :

الماو ماو .. كوريا ، الجزائر ، وتكاملت قبضة الهتاف عن جعفر حامد البشير في ( حربة وجمال ) وعند غيره من الشعراء فيما تحمل صفحات الادب والسياسة في الصحف المحلية .

وعاد الشعر الى منضدة الخطابة فسي الحشود الجماهيرية والليالي يقاوم تزييف ارادة الشعب فيما كان يسمى بالجميلية التشريعية . وفي الزهو بمقدرات الشعب في المواجهة الصارمة، وفي اشاعة عطر ذكرى الشهداء والسجناء السياسيين وتوج هذا كله ، باعلان استقلال السودان .

ورانت الفجيعة على حركة الادب حين انفصلت حركة التحرر السياسي عن المضمون الاجتماعي وا طرح اولو الامر المضمون الاجتماعي بعيدا ، واضطربت الاحوال في صراع مفيت وفوضوي نحو السلطة، ووهنت وحدة الصف الوطني ، وانتهزت قوى الاستعمار ومواقع التخلف في بلادنا هذه البلبلة لتنعبا طغمة من العسكريين في عام ١٩٥٨ على كراسي الحكم . وكان الادب فيما قبل وبعد ذلك يتاهل على صعيد الثقافات والتجارب الانسانية الجديدة خاصة في حقل التحرر الوطني. فالشعر يتفعل بقدرة من التجديد تنفذ الى اشياء اكثر قدسية في هيكل القصيدة العربية . فيهجر القافية والتفصيلات المنضبطة الى التفعيلة الواحدة الحرة ... وفي القصة يتلاشى الهتاف ، وتطرح الشرائع الاجتماعية نفسها بهدوء وبتأثير نابعين من قدرة البناء الفني وتبرز في المقدمة اجيال من الشعراء : صلاح احمد ابراهيم ، كجراي تاج السر الحسن ، جيلي عبد الرحمن ، محمد المكي ابراهيم،الحارذلو، مصطفى سند ، مبارك حسن ، ومحمد عبد الحجي . ومن القصاصين : الزبير علي ، الطيب زروق ، ابو بكر خالد ، عبد الله ابراهيم ، احمد الامين ، البشير ، ومصطفى مبارك ، وتسجيم ثورة المضمون والشكل لدى الابداء مع دوافع ثورة التحرر السياسي والاجتماعي .

صدر حديثا

# دراسات في الادب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

منشورات دار الآداب

الثن ٢٥٠ ق. ل